

## العلاقة بين الراعي والرعية في ظل الحكم الرشيد في ضوء مقاصد الشريعة \*

أ . د . علي محي الدين القره داغي

رئيس مجلس أمناء جامعة التنمية البشرية

الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

### المقدمة

إن أهم إشكالية نالت من الفكر والمنهج على مرّ التاريخ هي إشكالية التوازن بين حقوق الراعي (الدولة) والرعية (الشعب) حيث كانت الفلسفات السائدة تدور حول ترجيح متطلبات الدولة وحقوقها وهيبتها وسيادتها على حقوق الرعية والشعب، وبذلك يُرتكب الظلم والظلمات ومختلف الجرائم بحق الحرية والإنسانية تحت ذلك الغطاء. وبالمقابل فإن بعض الفلسفات الأخرى لا تولي العناية المطلوبة لهيبة الدولة وسيادتها، وبالتالي تصبح ضعيفة هزيلة، وتسود الفوضى الهدامة، وحينئذٍ فلا الشعب ساد وقوي وتقدم وتحضر، ولا الدولة قامت بواجبها. ولكن الإسلام استطاع بمنهجه الوسطي أن يقيم هذه العلاقة على ميزان دقيق، ويحقق الإيجابية لكلا الطرفين ليصبح جسداً واحداً يكون لكل عضو دوره، ويُحسّ بآلام وآمال الآخر، ويسعى لتحقيق الخير ودرء الشرور ويتحقق الخير للجميع. ونحن في هذا البحث نتحدث عن الأسس والمبادئ التي تنظم هذه العلاقة في ظل الحكم الرشيد في ضوء الكتاب والسنة ومقاصد الشريعة وفقه الميزان، والمآلات، وتحقيق المناط ورعاية الواجب والواقع، والمتوقع. والله أسأل أن يكتب لنا التوفيق والسداد وأن يكسو أعمالنا كلها ثوب الإخلاص و لباس التقوى وأن يعصمنا من الخطأ والزلل في القول والعمل ويتقبلها مني قبولاً حسناً إنه مولاي فنعم المولى و نعم النصير و المجيب.

## العلاقة بين الراعي والرعية ( الحاكم والمحكومين )

إذا نظرنا في النصوص الشرعية من الكتاب الكريم والسنة النبوية المشرفة لتوصلنا بسهولة إلى أن هذه العلاقة تنظمها ثلاثة أمور أساسية، هي النظام العام، والعقد، والقيم الأخلاقية :

**الأمر الأول : النظام العام المأخوذ من الأدلة القطعية والاستقراء الكلي، الذي يتمثل في مجموعة من**

**المبادئ الأساسية والقواعد الكلية العامة في هذا المجال ، مثل مبدأ العدل وغيره مما سنذكره.**

فهذا النظام العام الإسلامي يمثل خلاصة الأدلة الشرعية الكثيرة المتظافرة في هذا المجال، بل بقايا الشرائع السماوية، والفطر السليمة التي استقرت في نفوس الشعوب والتي تتطلع إليها وإن لم تصل إليها، وقد عبر الإمام الشاطبي عنها بقوله : (إنها كلية أبدية، وضعت عليها الدنيا، وبها قامت مصالحها في الخلق، حسبما بين ذلك الاستقراء، وعلى وفاق ذلك جاءت الشريعة أيضاً، فذلك الحكم الكليّ باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها)<sup>١</sup>.

هذا النظام العام يقوم على مجموعة من القواعد الكلية، والمبادئ الأساسية، والمقاصد العامة لهذه الشريعة، وقد أشار إلى الالتزام بهذا النظام العام الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بل ربط بين الالتزام وبين وجوب الطاعة، فقال رضي الله عنه في أول خطبة له بعد انعقاد الخلافة له: ( أيها الناس إني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فاعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ الحق له، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه - إن شاء الله - لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاّ عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطيعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

حيث أوضح الخليفة برنامج عمله الذي يقوم على مجموعة من المبادئ والحقوق المتبادلة من أهمها:

١ - أن صحة خلافته، أو حكمه مرتبطة بالالتزام بالنظام الإسلامي، وهو أطيعوني ما أطيعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

٢ - أن الأمة هي مصدر المراقبة والمحاسبة، والتقييم والتقويم، وهي القادرة على الخلع كما كانت قادرة على العقد.

٣ - إن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة، وإن حق السلطة لأحد ليس حقاً خالداً، وإنما هو حق مقيد بمدى التزامه به:

أ - الإحسان والابتقان وتحقيق الغايات المنشودة والأهداف المقصودة من الخلافة، أو الحكم، وهي: السعي الدائب، واستفراغ الجهد، وبذل المستطاع لتحقيق سعادة الدارين ، وتعمير الأرض في ضوء منهج الله تعالى، وتحقيق التنمية الشاملة للإنسان، ولذلك طلب من الأمة مساعدته على تحقيق ذلك، مع نصحه، وإرشاده، ومحاسبته بل تقويمه، وإعادةه إلى جادة الصواب، وأنه إذا لم ينفع النصح والإرشاد، فيكون السبيل هو الخلع والإبعاد .

ب - قدرته على تحقيق العدل بين الناس والابتعاد عن الظلم والاعتساف.

ج - حماية الأمة وأمنها السياسي والاجتماعي من المتربصين بها في الداخل والخارج.

٤ - أن العلاقة تكون قائمة على الصدق والشفافية والبيان والابتعاد عن الكذب، والغش والتغيير والتدليس والخيانة.

ونحن هنا نذكر أهم المقاصد العامة، والقواعد الكلية، والمبادئ الأساسية التي تُعدُّ من النظام العام للسياسة الشرعية، وهي:

### المبدأ الأول : الالتزام بالعدل والقسط ، وعدم الظلم والجور والتعدي والطغيان والبغي<sup>١</sup> :

يعتبر هذا المبدأ في الإسلام من أعظم المبادئ التي تقوم عليها الشريعة، وهو الأساس الأول فعلاً حسب الأدلة الشرعية القاطعة، وحسب واقع الرعييل الأول، فقد أكد عليه الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وربط مشروعية حكمه به، ثم لما نزل به مرض الموت الذي أيقن بأنه يموت قال لكبار الصحابة بالمدينة: ( إنه قد نزل بي ما ترون، ولا أظني إلا ميت، لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم )<sup>٢</sup> ثم رشح لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليكون الخليفة الثاني، فوافقوا، وحينئذ كتب عهده لعمر في رسالة نذكر منها ما يتعلق بالموضوع، فقال فيها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأو عهده بالآخرة، الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذلك علمي به، ورأيي فيه، وإن جارَ وبدلَ فلا علم لي بالغيب، والخير أردتُ، ولكل أمرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)<sup>٣</sup>.

وقدّم بعد مبيعة الصحابة له بعد موت أبي بكر برنامج عمله الخاص بتطبيق العدل فقال: (ولست أدعُ أحداً يظلم أحداً حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الحدّ الآخر حتى يدعن للحق ، ثم إني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف)<sup>٤</sup>.

### المبدأ الثاني : مبدأ الحقوق المتقابلة :

تقوم العلاقات بين المسلمين على الحقوق المتقابلة، فليس في الإسلام شخص له حق دون أن يكون عليه واجب، ولا آخر يكون عليه واجبات، وليس له حقوق، فهذا هو المجتمع الإسلامي المتوازن الذي يتحمل كل واحد ما عليه مهما كان صغيراً أو كبيراً، فقيراً أو غنياً، حاكماً أو محكوماً، راعياً، أو رعية، فلا يكون بمنأى عن هذا المنهج المتوازن، وهذا التوازن لا يوجد في المجتمعات الأخرى، فالمجتمع الرأسمالي قائم على الحقوق، والمجتمع الاشتراكي يقوم على الواجبات، أما المجتمع الإسلامي فهو مجتمع الحقوق والواجبات ، وإن كل مسلم يجب أن يؤدي واجبه قبل أن يطالب بحقه ، فكل مؤمن مطالب -

(١) يقول أبو البقاء العكبري في الكليات ، ط. مؤسسة الرسالة ص ١٥٠ : (الاعتدال هو توسط حال بين حالين في كم وكيف) ويقول في ص ٦٣٩ : (العدل ضد الجور .. والعدالة لغة الاستقامة، وفي الشريعة عبارة عن الاستقامة على الطريق الحق بالاختيار) وذلك بالاجتناب عن الهوى، ويقول في ص ٧٣٣ : القسط بالكسر العدل ، وبالضم الجور ) والقسطاس هو الميزان الدقيق للاحتراز عن الزيادة والنقصان ، وجاء في معجم الوسيط ، ط. قطر ص ٥٨٨ : (العدل : الانصاف ، وهو إعطاء المرء ماله ، وأخذ ما عليه) وفي ص ٧٣٤ : (القسط : العدل ، وهو من المصادر الموصوف بها ، يوصف به الواحد، والجمع ، يقال : ميزان قسط ، وميزانان قسط ، وموازن قسط ... والقسطاس : أضبط الموازين وأقومها)

(٢) تاريخ الطبري (٣ / ٤٢٨ )

(٣) المصدر السابق (٣ / ٤٢٨ - ٤٣٣ )

(٤) المصدر السابق نفسه.

بفتح اللام - في حين أن الإنسان في المجتمعات الأخرى يطالب بحقه أولاً، ثم يؤدي واجبه ثانياً، ولذلك تكثر فيها النزاعات في حين أن النزاع قليل في المجتمعات الإسلامية الملتزمة بشرع الله تعالى.

وبناءً على ذلك فلا يقوم المجتمع الإسلامي على الإيثار المجرد والتطوع، وإنما الإيثار زيادة خاصة بالمجتمعات الإسلامية لتقوية المجتمع وتماسكه حيث يقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)<sup>١</sup>.

فأساس المجتمع الإسلامي هو الحقوق المتقابلة وإما الإيثار فزيادة فضل وتمايز .

ويتزب على ذلك وجود التنافس في الخير، والتسارع نحو الأفضل، والتسابق نحو مزيد من الكسب والبناء والحضارة والتقدم، حيث يتميز من خلال ذلك الصالح منت الطالح، والقوي من الضعيف، والحسن من الشين، وهكذا. إضافة إلى أن ذلك يؤدي إلى عدم استغلال أحد لآخر فيجب أن يأخذ كل واحد حقه ما دام قد أدى ما عليه من واجب.

وقد تكفلت الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث الشريفة، وكذلك القواعد العامة والمبادئ والمقاصد العامة التي ذكرناها - أو سنذكرها - ببيان معظم هذه الحقوق المتقابلة، ونذكر هنا بعض الأحاديث الواردة بهذا الصدد، منها :

١- مسؤولية الراعي عن الرعية في كل ما استرعاه الله تعالى، حيث يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسؤول فالإمام راع وهو مسؤول والرجل راع على أهله وهو مسؤول والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول)<sup>٢</sup>، وهذه المسؤولية تشمل كما ما أمكنه الراعي من تحقيقه في مجال الأمن السياسي، والأمن الاجتماعي، والأمن الاقتصادي، وتوفير كافة حاجيات هؤلاء الذين هم تحت رعايته.

٢- وجوب العدل والقسط، وعدم الظلم والبغي - كما سيأتي - .

٣- الصدق والصفاء والبعد عن الخيانة والغش والتدليس، حيث روى البخاري ومسلم بسندهما عن معقل بن يسار قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ( ما من عبد يسترعه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) وفي رواية: ( فلم يَحْطُهَا بنصحه لم يجد رائحة الجنة )<sup>٣</sup>.

٤- النصح للأمة، ونصح الأمة لهم - كما سيأتي - .

٥- وجوب استفراغ الجهد لخدمة الأمة وتقويتها وحمائتها ونهضتها، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ( ما من أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يجهد لهم، وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة )<sup>٤</sup>.

٦- وجوب الرفق بالأمة وعدم العنف، والتضييق عليهم، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: ( سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيبي هذا: ( اللهم مَنْ ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقِّ عليه، وَمَنْ ولي من أمر أمتي شيئاً فَرَفَّقَ بهم فَرَفَّقْ به )<sup>١</sup>.

(١) سورة الحشر / الآية ٩

(٢) متفق عليه، البخاري - مع الفتح - (٣١٧/٢، ١٠٠/١٣) ومسلم، الحديث ١٨٢٩، ورواه أبو داود، الحديث ٢٩٢٨

(٣) رواه البخاري - مع الفتح - (١١٣/١٢٢، ١١٣) ومسلم (١٤٦٠/٣)

(٤) رواه مسلم الحديث (١٢٦٠/٣)

ويقول صلى الله عليه وسلم: ( إن شرّ الرّعاء الحطمة )<sup>٢</sup> والحطمة: هو العنيف برعاية الإبل، والمقصود به : الوالي القاسي.

٧- عدم الاحتجاب عن الشعب، وتحقيق حوائجهم، والاستماع لأصحابها، حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ( من ولاه الله من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وقرهه يوم القيامة )<sup>٣</sup>.

٨- الحب والدعاء المتبادل، ومراعاة الحقوق الاجتماعية من الطرفين، حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ( خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم )<sup>٤</sup>، فهذا الحديث يدل على ضرورة أن يعمل الحكام من الأعمال التي تحبهم إلى شعوبهم فيدعون لهم، وعليهم كذلك أن يبادلوا هذا الحب بالحب والدعاء، بالإضافة إلى وجود تواصل اجتماعي بين الطرفين بحيث يقوم الحاكم بالصلاة على موتاهم، وهكذا ..

### المبدأ الثالث : مبدأ المساواة

فمن أهم القواعد التي أرساها الإسلام هي قاعدة المساواة بين المسلمين مساواة في الحقوق والواجبات، ومساواة في الأحكام والمكانة والاعتبار، فالمسلمون متساوون كأسنان المشط فلا فضل لواحد منهم على الآخر على أساس العرق، أو اللون ، أو الشكل، أو القومية أو القبيلة، أو الاقليم، بل البشرية في هذا كلهم سواء فكلهم من آدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي ولا أبيض على أسود، ولا أسود على أبيض، ولا... ولا... إلا بالتقوى، علماً بأن التقوى هي في الصدر لا يعلم بها إلا الله تعالى.

فقد قضى الإسلام من خلال آيات وأحاديث كثيرة على كل مظاهر التفرقة على أي أساس كانت فهي مرفوضة في الإسلام.

وكذلك المساواة أمام القضاء والمحاكم وفي تحقيق العدالة ووصول الحق إلى صاحبه مهما كان قوياً أو ضعيفاً كما قال الخليفة أبو بكر رضي الله عنه (القوي عندكم ضعيف حتى آخذ منه حق الضعيف ، والضعيف قوي عندي حتى آخذ له حقه من القوي).

(١) رواه مسلم ، الحديث ١٨٢٨

(٢) رواه البخاري في صحيحه - مع الفتح -

(٣) رواه أبو داود الحديث ٢٩٤٨ ، والترمذي ، الحديث ١٣٣٣ ، والحاكم في المستدرک ( ٩٣ / ٤ ، ٩٤ ) وقال : صحيح ، ووافقه الذهبي .

(٤) رواه مسلم ، الحديث رقم ١٨٤٦

## المبدأ الرابع : مبدأ عدم اكتساب الحاكم أي ميزة على الآخرين (مثلية الحاكم في البشرية)

وأنة لم تزد إلا المسؤولية، ولذلك قال الخليفة أبوبكر في أول خطبة له بعد الخلافة يحدد فيها برنامج عمله: (أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، ...) ولذلك رفض أيضاً أن يُسمى: خليفة الله، حينما دُعي به، فقال: (لست خليفة الله، ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم) <sup>١</sup> مع أن فيه وجهاً، ولكن الجمهور على منع هذا الاسم <sup>٢</sup>، لأن الاستخلاف للغائب، والله حاضر، ولأن فيه نوعاً من التقديس والتمايز، فالخليفة هو واحد من الناس، ولكنه كلف بحمل أمانة أكبر، ومسؤولية أعظم، فهو ليس فوق البشر، ولا ظل الله في الأرض، كما تصوره الناس، أو صور لهم في عصر الوثنيات والصنميات وظلال الله المدعاة في الأرض <sup>٣</sup>، ومثل ذلك أكد عليه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: في إحدى خطبه: (أيها الناس لقد رأيتني أرعى لحالات لي من بني مخزوم فكنت أستعذب لهن الماء فيقبضني القبضة من التمر أو الزبيب) ثم لما نزل قوله له عبدالرحمن بن عوف: (ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ أجاب: ويحك يابن عوف، لقد خلوت إلى نفسي، فقالت لي: أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها) <sup>٤</sup>.

هذا المبدأ الجديد الذي أضفته قد يثور حول ذكره التساؤل: فهل يمكن أن يدعي الحاكم غير ذلك في الأمة الإسلامية؟

الجواب: ان جميع الطغاة والظلمة يبررون ظلمهم بأنهم يمتازون بميزات شخصية، أو مكتسبة بسبب الحكم، فقد ادعى بعضهم الألوهية، وادعى الآخرون أن روح الإله قد سرت فيهم، وادعى بعض ثالث: أنهم مقدسون معصومون، وادعى بعض رابع: أنهم الأمة، والشعب، وأن الشعب هو، فكأنما يقولون: " أن الشعب والشعب أنا، نحن روحان حللنا بدنا؟!!!، بل أنا الروح حللت الشعب"، وادعى خامس: أنه الإنسان والمجد، والشعب هم الحشرات، أو الجرذان، كما قال شاوسيسكو عندما تظاهر شعبه، فقال هو وزوجته: " أبيدوا هؤلاء الحشرات بالمبيدات"، وقال القذافي: " أنا المجد وأنا العزة .... وهؤلاء المتظاهرون هم الجرذان والحونة" <sup>٥</sup>، وهكذا.

وقد سجل الله تعالى هذه الأقوال في القرآن الكريم من خلال فرعون قدوة حكام السوء، فقال تعالى: ( قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) <sup>٦</sup> فأوضح هنا بأن رأيه هو الرأي الأوحده، وأنه ليس هناك رأي آخر، وأن رأيه معصوم حيث لا بد لكم إلا سبيل المجد والرشاد والقوة، ولذلك كان الشعب عنده حقيراً لا قيمة له، فقال تعالى مبيناً هذه الحقيقة ( فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاغَوْهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) <sup>٧</sup>.

(١) المقدمة لابن خلدون ص ١٧١

(٢) المصدر السابق نفسه

(٣) الدكتور عماد الدين خليل: حول القيادة والسلطة ط. مكتبة النور بالقاهرة ص ١٥

(٤) المقدمة لابن خلدون ص ١٧١

(٥) خطبته المنفرة على معظم قنوات العالم التي تكررها منذ ٢٠١١/٢/٢٠ إلى يومنا هذا

(٦) سورة غافر / الآية ٢٩

(٧) سورة الزخرف / الآية ٥٤

ولننظر في الآيات الآتية التي توضح نفسية فرعون وطغيانه وجبروته وانه يرى نفسه أفضل من غيره فقال تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ)<sup>١</sup> ثم لم يكتف بأنه أفضل من موسى عليه السلام، وإنما استخف قومه: ( فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)<sup>٢</sup> بل وصل به الطغيان إلى أن يقول: انه المهيم فقال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)<sup>٣</sup>، بل وصل به الأمر والطغيان والدكتاتورية والاستبداد، وكبت الحريات إلى أن قتل السحرة لأنهم لم يستأذنه في الإيمان بالله تعالى ( قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)<sup>٤</sup>.

وقد حول فرعون ما عرضه عليه موسى عليه السلام من نقاش فكري وحوار عقلي وجدال نظري إلى معركة القتل والابادة فقال تعالى حكاية عنه: ( قَالَ سَنُقَاتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ)<sup>٥</sup> كما بين الله تعالى صفات هؤلاء الطغاة من العلو والاستكبار والاسراف والتبذير فقال تعالى: ( وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)<sup>٦</sup> كما وصفه الله تعالى بالطغيان فقال تعالى (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)<sup>٧</sup> وفي آية ثانية ( اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)<sup>٨</sup>.

كما بين الله تعالى أن الطغاة المستبدين يسرون دائماً على إضعاف الشعب، والأمة، وإحداث التفرقة بينها، وجعلهم شيعاً وفاقاً متنافرة، ليتحكم فيهم، ويكون قادراً على القتل والذبح والعذاب لكل من يتصدى لهم فقال تعالى: ( إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)<sup>٩</sup>.

وقد قص الله تعالى في القرآن الكريم قصصاً أخرى تؤكد هذا المعنى فقال تعالى في طغيان الطاغية (نمرود) مع سيدنا إبراهيم حينما ادعى الألوهية حتى ادعى الاحياء والإماتة فقال: ( أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ )<sup>١٠</sup>.

إذن المشكلة الأساسية في الحكم هو الطغيان وأن الحكام يصل إلى مرحلة إلى أنه ليس مثل بقية البشر، وإن كان هذا التمايز يبدأ بأمر خفيف ليصل إلى ادعاء مرتبة الألوهية وأنه ( لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)<sup>١١</sup>.

ومن هنا فالحل الأساس هو وضع جميع الوسائل والأدوات والآليات لمنع الحاكم ادعاء هذا التمايز، وهذا ما فعله الإسلام من خلال ما يأتي:

(١) سورة الزخرف / الآية ٥١

(٢) سورة الزخرف / الآية ٥٤

(٣) سورة القصص / الآية ٣٨

(٤) سورة الأعراف / الآية ١٢٣

(٥) سورة الأعراف / الآية ١٢٧

(٦) سورة يونس / الآية ٨٣

(٧) سورة طه / الآية ٢٤

(٨) سورة طه / الآية ٤٣

(٩) سورة القصص / الآية ٤

(١٠) سورة البقرة / الآية ٢٥٨

(١١) سورة الأنبياء / الآية ٢٣

١- الجانب العقدي الذي ركز الإسلام عليه تركيزاً شديداً، وأولى له عناية قصوى، وذلك من خلال أن العقيدة الإسلامية تقوم على أن جميع البشر بكل طوائفهم وشعوبهم وأقوامهم وأجناسهم من آدم، وآدم من تراب خلقه بيده ثم نفخ فيه من روحه، وهذا ما عليه مئات الآيات، والأحاديث الصحيحة، ولذلك لا يجوز لأحد - مهما بلغ - أن يُميّز نفسه أو يدعي أنه يمتاز من حيث الخلق على أي أحد آخر، ومن هنا ردّ الله تعالى على بني إسرائيل لما ادّعوا أنهم أحباء لله وأنهم الشعب المختار فقال تعالى: ( بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ )<sup>١</sup> ولم يكتف بذلك القرآن الكريم، بل أصّل ذلك حتى للأنبيا والرسل بأنهم ليسوا إلا بشراً، ولكن الله تعالى أوحى إليهم، حيث أكد ذلك في أكثر من آية فقال تعالى: ( قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ )<sup>٢</sup> وقال تعالى: ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ )<sup>٣</sup>، فالمثلية في الخلق وعدم امتياز أحد في الأصل والخلق هي الأساس في التعامل الإنساني.

٢- الجانب التربوي الذي يربي فيه الإسلام الإنسان على هذا المعنى الإنساني من خلال عدد من الآيات والأحاديث التي تؤصل ذلك، بل يربطه بالإيمان حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه ).

٣- القدوة من خلال تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو النبي القائد في مأكله ومشربه وملبسه، وجميع تصرفاته مع أمته، حيث لم يكن يميّز نفسه لا بملبس خاص ولا مكان ولا غيره، يقول صلى الله عليه وسلم: ( أيها الناس إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد وتمشي في الأسواق )، وكانت الآيات القرآنية تذكره دائماً بهذا الجانب ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ )<sup>٤</sup> مؤكداً عليه أن يقول: ( وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ )<sup>٥</sup> وأن يقول: ( وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ )<sup>٦</sup>.

و يدخل في هذا الباب بعض الآيات التي يفهم منها العتبا، أو التوجيه، منها قوله تعالى: ( عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى )<sup>٧</sup> وقوله تعالى ( عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ )<sup>٨</sup> وغير ذلك.

و يدخل في هذا الباب أيضاً الآيات القرآنية الدالة على أنه ليس بيد الرسول شيء من أمور الكون، والتوبة، والعفو، والعذاب، والنصر، والهداية وغير ذلك، منها قوله تعالى ( فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ )<sup>٩</sup> ومنها قوله تعالى: ( لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ )<sup>١٠</sup>.

(١) سورة المائدة / الآية ١٨

(٢) سورة إبراهيم / الآية ١١

(٣) سورة الكهف / الآية ١١٠

(٤) سورة الكهف / الآية ١١٠

(٥) سورة الأعراف / الآية ١٨٨

(٦) سورة الأنبياء / الآية ١٠٩

(٧) سورة عبس / الآية ١ - ٤

(٨) سورة التوبة / الآية ٤٣

(٩) سورة الغاشية / الآية ٢١ - ٢٢

(١٠) سورة آل عمران / الآية ١٢٨

ثم قال تعالى: ( قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ )<sup>١</sup> وقال: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)<sup>٢</sup> وقال تعالى: ( قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ )<sup>٣</sup>.

وهذا الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقدم برنامجه القيادي والعملي في كلمات مؤثرة يقول فيها: ( أيها الناس إنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ الحق له، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه - إن شاء الله - لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلاّ ضربهم بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلاّ عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

ومن هذا المنطلق كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أصحابه كأنه واحد منهم، ففي غزوة بدر كان مع جيش الرسول صلى الله عليه وسلم سبعون بغيراً يتعاقبون على ركوبها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وأولاده، وعلى ابن أبي طالب يتعاقبون على بغير واحد، فأراد أو لبابة وعلي أن يوثراه بالركوب فامتنع صلى الله عليه وسلم، فقال: ( ما أنتم بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما )<sup>٤</sup>.

### المبدأ الخامس: مبدأ الشورى والمشاورة

حيث يجب على الحاكم مشاورته الدائمة مع الأمة من خلال ممثليها، أو حسب أهمية الموضوع، فإن كان يحتاج إلى رأي الأمة كلهم فعليه أن يستشيرهم من خلال استفتاء عام نزيه حرّ، وإلاّ فقد تكون المشورة لأهل العسكر، وقد تكون لأهل تخصص آخر، وهذا ما أمر الله تعالى به رسوله الموحى إليه صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ( فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ )<sup>٥</sup>.

### المبدأ السادس: مبدأ المناصحة، وقبول النصيحة، والمراقبة والمحاسبة

ومن المعلوم أن الإسلام أولى عناية قصوى بالنصيحة، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن هذه النصيحة ليست للمستضعفين فقط، بل لأنتمهم أيضاً، حتى حصر الرسول صلى الله عليه وسلم الدين في النصيحة، فقال: ( الدين النصيحة، قالوا لمن يارسول الله؟ قال: ( لله ولسوله وللمؤمنين )<sup>٦</sup>، والآيات والأحاديث كثيرة في هذا المجال.

(١) سورة آل عمران / الآية ١٥٤

(٢) سورة الأعراف / الآية ٥٤

(٣) سورة الأنعام / الآية ٥٨

(٤) رواه أحمد في مسنده (٤١١/١) ورواه الحاكم بنفس مسند أحمد المستدرک (٢٠/٣) وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الفهمني في مجمع الزوائد (٩٦/٦): رواه أحمد والبخاري، وفيه عاصم بن بهدلة،

وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) سورة آل عمران / الآية ١٥٩

(٦) متفق عليه

ومن الجانب العملي والتطبيقي أن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا حريصين أشد الحرص على الضرورة أن تقوم الأمة بواجبها في النصح والارشاد والمراقبة والمحاسبة، فهذا الحليفة عمر رضي الله عنه قال: ( يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأس إلى الدنيا هكذا ؟ فقام إليه رجل، فقال: أجل: كنا نقول بالسيف هكذا ( وأشار إلى قطع الرأس ) فقال عمر: ( أياي تعني بقولك ؟ ) قال الرجل: نعم إياك أعني بقولي ، فقال عمر: ( الحمد لله الذي جعل في رعيي من يقومني إذا عوججتُ )، وقال حذيفة رضي الله عنه: ( دخلت على عمر يوماً فرأيتُه مهموماً حزيناً، فقلت له: ما يهْمُك يا أمير المؤمنين ؟ قال: ( إنني أخاف أقع في منكر، فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً ) قال حذيفة: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لنهيناك، فسرَّ عمر وقال: ( الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقوموني إذا عوججتُ ) ، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: ( كان بين يدي عمر وبين رجل كلام في شيء، فقال الرجل: اتق الله، فقال أحد الجالسين، أتقول لأمر المؤمنين: اتق الله ؟ فردَّ عمر: (دعه فليقلها لي، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها)، فهذه قمة المساءلة.

ومما يدخل في باب النصح والمحاسبة والمراقبة: الثورات الشعبية، والمظاهرات والاحتجاجات، ونحوها.

### المبدأ السابع : توفير الحرية الكافية في كل مجالات الحياة

يمكن تقسيم الحريات العامة إلى:

- ⊂ الحرية الفكرية، والدينية
- ⊂ الحرية الاقتصادية ( حرية الملكية، وحرية العمل )
- ⊂ الحرية السياسية
- ⊂ الحرية العلمية والثقافية

### حماية الحريات من أعظم الكرامة للإنسان :

إن كرامة الانسان لا يمكن أن تتحقق في ظل الكبت والظلم والتعسف، وإنما كرامة الإنسان متلازمة مع حقه في الحرية الفكرية والدينية، والسياسية، والمدنية، والاجتماعية، والاقتصادية ( حرية الملكية، حرية العمل ) والعلمية والثقافية ونحوها.

ولا يسهل المجال لافراد كل نوع بالحديث الشامل المتضمن موقف الاسلام من كل حرية من هذه الحريات، وإنما نتحدث بشكل عام عنها بحيث لا يتجاوز ذكر المبادئ العامة مع بعض أدلتها بإيجاز:

### أولاً - الحرية الفكرية :

إن الحرية الفكرية في الاسلام ليست مجرد حق للإنسان وإنما هي حق الله تعالى على الانسان أيضاً، وهذه الحرية تقتضي عدة أمور من أهمها: احترام العقل والعناية به ، وتشغيله ، وتحريكه، وعدم تجميده من خلال التقليد، والتعصب، وهذه الأمور وغيرها بارزة جداً في الاسلام فقد أعلى من شأن العقل، ورفع شأنه، فجعله مناط التكليف، فلا تكليف إلاّ

بالعقل، وجعله دليلاً على وجوده، وحجة على وحدانيته، بل أمر الله تعالى بالرجوع إليه عند الاختلاف العقلي فقال تعالى: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)<sup>١</sup>.

وقد استعمل القرآن الكريم مشتقات " عقل " في تسع وأربعين آية، بصيغة الفعل الماضي ( عقلموه ) مرة واحدة، والبقية بفعل المضارع سواء بلفظ الغائب ( يعقلها ) مرة واحدة، أم بلفظ المتكلم مع الغير ( نعقل ) مرة واحدة، أم بلفظ الجمع الغائب ( يعقلون ) اثنان وعشرون مرة أم بصيغة الجمع المخاطب ( تعقلون ) أربعة وعشرون مرة<sup>٢</sup>.

ولم يرد لفظ ( العقل ) بالاسم معروفاً أو نكرة في القرآن الكريم ولكن ورد مرادفه مثل ( الألباب ) وهو جمع اللب وهو العقل ست عشرة مرة<sup>٣</sup>، و ( الحلم ) بضم الحاء واللام بمعنى العقل مرتين<sup>٤</sup>، و ( حجر ) بكسر الحاء وسكون الجيم بمعنى بمعنى العقل مرة واحدة<sup>٥</sup>، و ( النهي ) بضم النون وفتح الهاء بمعنى العقل مرتين<sup>٦</sup> و ( القلب ) وجمعه، في عدة آيات<sup>٧</sup>، و ( الفؤاد ) وجمعه في عدة آيات أخرى<sup>٨</sup>، إضافة إلى آيات كثيرة في النظر والتدبر، والتبصر، ونحوها.

فهذه الآيات الكريمة الكثيرة حول العقل ومصطلحاته الأخرى يفهم منها بوضوح ما يلي :

١ - احترام العقل، والثناء عليه وأنه له مكانة عظيمة في الاسلام، وأنه الشاهد الثاني بعد شاهد الوحي لصدق الرسالات السماوية التي خاتمتها الاسلام، وبالتالي فلا يمكن أن يتعارض النقل الصحيح الخالي عن العواض مع العقل السليم، وقد ألف شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله كتاباً في أحد عشر مجلداً حول ( درء تعارض العقل والنقل ) حيث أثبت أن هذا التعارض غير وارد فضلاً عن البحث عن الجمع بينهما، وهو بذلك رد على عدد من العلماء الذين حاولوا التوفيق بينهما عند التعارض<sup>٩</sup>.

وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه، وذلك لأن العقل مخلوق لله تعالى والوحي منزل من عنده، فكيف يتعارض كتابه

المنزل المسطور مع كتابه المفتوح ؟

٢- الأمر بإعمال العقل وتشغيله، حيث قال الله تعالى: (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)<sup>١٠</sup> وقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)<sup>١١</sup>.

(١) سورة البقرة / الآية ١١١

(٢) يراجع : معجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي مادة ( عقل )

(٣) المصدر السابق مادة ( لب )

(٤) وهما في سورة النور، الآيات ٥٨ - ٥٩ ، قوله تعالى : ( وَالَّذِينَ نَمَّ يَتْلَفُوا الْحُلْمَ مِنْكُمْ ) وقوله تعالى : ( وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلْمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا )

(٥) في قوله تعالى في وسرة الفجر ، الآية ٥ : ( هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرِ ) أي الذي عقل

(٦) هما في سورة طه ، الآية ٥٤ ، والآية ١٢٨ وهو قوله تعالى : ( كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ) وقوله تعالى : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ) أي لأصحاب العقل

(٧) يراجع : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مادة ( قلب )

(٨) المرجع السابق ، مادة ( فؤاد )

(٩) يراجع : درء تعارض العقل والنقل ط. جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ١٣٩٩هـ تحقيق د. محمد رشاد سالم (١/٤٠٠٤)

(١٠) سورة يونس / الآية ١٠١

(١١) سورة سبأ / الآية ٤٦

ومع الأمر الرباني أرشدنا القرآن الكريم إلى النظر الشمولي في خلق السموات والأرض، والنظر الجزئي التفصيلي في كل شيء من هذا الكون، وفي الأنفس والآفاق.

وفي الحث على النظر الشمولي العام يقول الله تعالى: ( إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )<sup>١</sup>.

وفي الحث على النظر الجزئي يقول الله تعالى: ( وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ )<sup>٢</sup>.

وهاتان الآيتان ختمتا بقوله تعالى ( لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) مما يدل على أهمية العقل، والحث على تشغيله وتفعيله، ووردت كذلك آيات كثيرة في هذا المعنى، وتختتم كذلك إما بنفس الخاتمة، أو بما هو قريب منه.

وفي النظر إلى الأنفس يقول الله تعالى: ( وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ )<sup>٣</sup> بل يقول القرآن الكريم بكل ثقة وثبات: إن الآيات الكثيرة في الأنفس والآفاق التي يكتشفها العلم على مر الزمن ستؤدي لا محالة إلى هداية العقل هداية كاملة إلى الإيمان بأن هذا القرآن هو الحق حيث يقول تعالى: ( سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ )<sup>٤</sup>.

وقد أثنى الله تعالى على العقل وصاحبه في عدة آيات، فأسند إليهم فضل القدرة على التذكر والتفقه والاعتباط والاعتبار، فقال تعالى: ( قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ )<sup>٥</sup> وقال تعالى بعد ذكر عدة آيات كونية: ( ..... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ )<sup>٦</sup> بل إن الله تعالى حصر التذكر النافع في أصحاب العقول فقال تعالى: ( وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ )<sup>٧</sup>.

كما أن الله تعالى بين بأن أصحاب العقول الكاملة هم الذين يستفيدون من الماضي وغيره فقال تعالى: ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ )<sup>٨</sup> كما أن الله تعالى بين بأن أولي الألباب السليمة هم وحدهم الذين يستمعون سمعاً جيداً، ويميزون بين القول السيء والأسوأ، والقول الحسن، ثم بين القول الحسن، والقول الأحسن، أنهمهم لديهم فقه الأولويات، والموازنات فقال تعالى: ( الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ )<sup>٩</sup>.

٣ - الأمر باستعمال دقيق وصحيح وشامل لمصادر معلومات العقل بصورة صحيحة: من التجارب الممثلة في التاريخ وقصص

(١) سورة البقرة / الآية ١٦٤

(٢) سورة الرعد / الآية ٤

(٣) سورة الذاريات / الآية ٢١

(٤) سورة فصلت / الآية ٥٣

(٥) سورة الزمر / الآية ٩

(٦) سورة الزمر / الآية ٢١

(٧) سورة آل عمران / الآية ٧

(٨) سورة يوسف / الآية ١١١

(٩) سورة الزمر / الآية ١٨

الماضيين بحيث يجللها العقل ويستفيد منها فقال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) <sup>١</sup> أي لذوي العقول الذين يستفيدون من إيجابيات الماضي ويتعظون من سلبياته، لكنهم لا يقفون عند الماضي، ولا يجمدون عنده، بل (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) <sup>٢</sup> بل إن الله تعالى أمر العقلاء بالاعتبار في سبع آيات، والاستفادة من الماضي، والمشاهد، فقال تعالى: (..... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) <sup>٣</sup>.

وكذلك الاستفادة من الحواس الخمس من النظر والبصر والسمع فقال تعالى في وصف أهل النار: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) <sup>٤</sup>.

وهذا المنهج الدقيق القائم على استعمال العقل وصفاء مصادر معرفية، يوصل صاحبه إلى الحق، وعلو الأبداء، والاستفادة من الماضي، والتخطيط للمستقبل، وهو الذي تبنى به الحضارة.

بل إن الله تعالى أمر بالنظر في الكون كله، وفي خلقه، وفي طعامه وشرابه، وغير ذلك حتى يكون همه دقيقاً، فقال تعالى: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) <sup>٥</sup> وقال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) <sup>٦</sup> والمقصود بذلك أن تنظر العين نظرة دقيقة وأن يجعلها العقل تحليلاً شاملاً عميقاً، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بالأبصار الذي هو الرؤية المعنوية العقلية الناتجة عن الرؤية البصرية، حيث يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) <sup>٧</sup> أي أن هؤلاء يرون ما يحدث، ولكن ليس لديهم البصيرة العقلية، وبذلك لم يستفيدوا من حواسهم على سبيل الحقيقة والنتائج.

وقد ورد النظر ومشتقاته في القرآن الكريم مائة وتسعة وعشرين مرة، والبصر ومشتقاته مائة وثمانية وأربعين مرة.

٤ - الأمر بالتدبر في أربع آيات كريمة حول التدبر في القرآن الكريم فقال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) <sup>٨</sup> وقال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) <sup>٩</sup>.

٥ - الأمر بالتفكير والدعوة إليه، ورد في القرآن الكريم ست عشرة مرة، منها قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُونَ) <sup>١٠</sup> وقوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) <sup>١١</sup>.

(١) سورة يوسف / الآية ١١١

(٢) سورة البقرة / الآية ١٣٤

(٣) سورة الحشر / الآية ٢

(٤) سورة الأعراف / الآية ١٧٩

(٥) سورة الأعراف / الآية ١٨٥

(٦) سورة الطارق / الآية ٥

(٧) سورة السجدة / الآية ٢٧

(٨) سورة ص / الآية ٢٩

(٩) سورة النساء / الآية ٨٢

(١٠) سورة سبأ / الآية ٤٦

(١١) سورة الأنعام / الآية ٥٠

بل إن الأستاذ عباس العقار رحمه الله جعل عنوان كتابه ( التفكير فريضة إسلامية ).

٦ - الأمر بالتفقه والدعوة إليه في آيات كثيرة، حيث ورد الفقه ومشتقاته عشرين مرة، منها قوله تعالى: (أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ)<sup>١</sup>.

٧ - الأمر بالتذكر والدعوة إليه في آيات كثيرة، حيث ورد التذكر ومشتقاته في القرآن الكريم مائتين وتسعة وستين مرة منها قوله تعالى: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)<sup>٢</sup>.

٨ - ذم الذين عطلوا عقولهم بالتقليد والتعصب الأعمى فقال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)<sup>٣</sup> بل بين الله تعالى أن الفرق بين الانسان والحيوان هو استعمال العقل فقال تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يُعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)<sup>٤</sup>، وهناك عشرات الآيات يفهم منها الذم القبيح لمن لم يستعمل عقله، أو لا يتدبر، أو لا يتذكر، أو لا يتفكر، أو لا يبصر<sup>٥</sup>.

والخلاصة أن الاسلام أعطى قيمة عليا لعقل الانسان وفكره، حتى نستطيع القول بكل ثقة: أنه لم يوجد نظام آخر أو دين يعطي كل هذه الأهمية للحرية الفكرية.

### الجانب التطبيقي للحرية الفكرية :

ولقد سارت الأمة الاسلامية في عصر الرسالة، وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، على احترام العقل، وتفعيله وتشغيله من خلال الاجتهاد الذي يشمل النصوص الظنية، والنوازل والمستجدات، فلم يتوقف الاجتهاد، بل أوجد الحلول لكل القضايا المعاصرة ، بدءاً من الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى اليوم .  
ومن جانب آخر فإن علماء المسلمين عرفوا حق المعرفة مجالات العقل في الابداع، حيث هي تشمل كل العالم اخصوس بما فيه من كنوز وخيرات ، ولم يستعملوا عقولهم في عالم ما وراء الطبيعة ( الميتافيزيقيا ) ولذلك تحققت خلال فترة وجيزة حضارة إسلامية استفادت من كل التراث الانساني ، وأضافت إليه الكثير والكثير في مختلف مجالات العلوم والفنون والصناعات<sup>٦</sup>.

### ثانياً - الحرية الدينية :

إن الحرية الدينية هي أهم أنواع الحريات في الحقيقة ، وهي يقصد بها أمران، هما:

- ١ . حرية العقيدة التي تتيح للفرد اعتناق أي دين.
- ٢ . حرية العبادة، وممارسة الشعائر التعبدية.

(١) سورة الأنعام / الآية ٦٥

(٢) سورة الرعد / الآية ١٩

(٣) سورة لآلفال / الآية ٢٢

(٤) سورة الفرقان / الآية ٤٤

(٥) يراجع : القعاد : التفكير فريضة اسلامية ط . المكتبة العصرية / بيروت ، ود. قاطمة اسماعيل : القرآن الكريم والنظر الفعلي ، ط . المعهد العالمي للفكر الاسلامي ١٤٢٠هـ

(٦)

وقد دلت الآيات القرآنية المكية والمدنية على هذه الحرية بنوعها من حيث المبدأ والاجمال، وفصلتها السنة النبوية الشريفة، فقال تعالى: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)<sup>١</sup> وقال تعالى للكفار: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)<sup>٢</sup> مع أن دين الكفار كان الشرك وعبادة الأصنام، وقال تعالى: (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)<sup>٣</sup> وقال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)<sup>٤</sup>.

### الجانب العملي والتطبيقي للحرية الدينية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم :

لا أتحدث عن الفترة المكية حتى لا يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن له سلطة ولا قدرة ولا دولة، وإنما أتحدث عن العصر المدني الذي كان صلى الله عليه وسلم هو القائد والحاكم الفعلي للمدينة، ثم للجزيرة كلها، ومع ذلك حينما دخل المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار قام بوضع أول دستور عادل شهدته الانسانية على مر التاريخ، وهو ما يسمى بالوثيقة التي تتضمن سبعاً وأربعين مادة، تتحدث أربعة وعشرون مادة منها عن العلاقة بين المسلمين واليهود، يستنتج منها بكل وضوح احترام الحرية الدينية، وإعطاء ما يسمى في عصرنا الحاضر (حقوق المواطنة) إلى اليهود في المدينة، وأن عليهم الواجبات من الالتزام بنفقات الحرب الدفاعية، بل والمساهمة القتالية للدفاع عن المدينة<sup>٥</sup>.

بل إن الاسلام جعل أحد أسباب الجهاد هو الدفاع عن أماكن العبادة لكل الأديان السماوية فقال تعالى: (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)<sup>٦</sup> وأكثر من ذلك أن الشريعة الاسلامية تحمي ممتلكات غير المسلمين حتى ولو كانت محرمة في نظرها، مثل الخنازير والخمور، وتحظر على المسلمين الاعتداء عليهما ما دامتا في إطار المجتمع المسيحي، أو اليهودي<sup>٧</sup>.

### علاقة البرِّ والاحسان لكل من يعيش في ظل الاسلام :

وتجسيدا لكرامة الانسان، وتطبيقاً لاحترام حرية الأديان نظم الاسلام العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين الذين يعيشون في ظل دولة الاسلام على أساس البرِّ والاحسان، وعلى أساس حب الخير لهم، ما داموا ملتزمين بقواعد المواطنة، أما إذا خرجوا عنها فإن الاسلام مع ذلك يتعامل معهم بالعدل.

فقد نظمت الآيات الثلاث من سورة الممتحنة هذه العلاقات فقال تعالى: (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ

(١) سورة الكهف / الآية ٢٩

(٢) سورة الكافرون / الآية ٦

(٣) سورة يونس / الآية ٤١

(٤) سورة البقرة / الآية ٢٥٦

(٥) يراجع: الاموال لأبي عبيد ص ٢٩٦، والسنن الكبرى للبيهقي (٥٣/٩) ويراجع: الدكتور آكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ط. قطر (٢٨٦/١)

(٦) سورة الحج / الآية ٤٠

(٧) يراجع: المغني لابن قدامة (٢٨٣/٤) ومجموع الفتاوى (٥٩٢/٢٨) ود. عل يلقوه داغي: المقدمة في المال والاقتصاد والملكية والعقد ط. دار البشائر الاسلامية ص ٣٥

وَوَظَاهِرُوا عَلَيَّ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ<sup>١</sup>، وفي حالة الجدل والحوار فإن المسلمين مأمورون بالجدال بالتي هي أحسن، ولا يكتفي في ذلك بالجدال الحسن، فقال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)<sup>٢</sup>.

ولم يسجل التاريخ في ظل الخلافة الراشدة (وحتى في ظل الدول الإسلامية الأخرى) أنه أجبَر أحد على الإسلام، أو أكره على ترك دينه ما دام ملتزماً بقواعد المواطنة، وذلك لأن القرآن الكريم منع ذلك فقال تعالى: ( لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)<sup>٣</sup> وحدد موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ)<sup>٤</sup>. وقد شهد بذلك غير المسلمين فقال جوستاف لوبون: (إن القوة في الإسلام لم تكن عاملاً لنشر القرآن)<sup>٥</sup> ويقول الشيخ محمد الغزالي: (إن الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الأرض لم يعرف لها نظير في القارات الخمس، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة، ومنح مخالفه في الاعتقاد كل أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام.... والقارئ اللبيب يرى أن الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له والكافرين به بأساليب شتى، ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام، وهو عنه صاد، فكلمة " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"<sup>٦</sup> وكلمة " وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ... "<sup>٧</sup> هذه الكلمات وأمثالها مما تردد في صدر الإسلام هي التي ظلت تتردد في أواخر العهد المدني....<sup>٨</sup>

### ثالثاً - الحفاظ على حياة الانسان وخصوميته

فقد جعل الإسلام الحفاظ على حياة الانسان أحد المقاصد الكلية للإسلام، وإحدى الضروريات الأساسية، ولذلك جعل من يعتدي على فرد فكأنما اعتدى على الناس جميعاً، فقال تعالى: (مَنْ أَجْلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)<sup>٩</sup>. وبالنسبة لخصوصية الانسان وحرمة الاعتداء عليها وردت آيات، وأحاديث كثيرة تدل على أن للمسكن حرمة واحتراماً، وأنه لا يجوز دخول غير صاحبه إلا بعد الاستئذان والاستئناس، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)<sup>١٠</sup>.

(١) سورة الممتحنة / الآية ٧ - ٩

(٢) سورة العنكبوت / الآية ٤٦

(٣) سورة البقرة / الآية ٢٥٦

(٤) سورة الغاشية / الآية ٢١ - ٢٢

(٥) نقل عنه د. عبدالوهاب الشيشاني في كتابه: حقوق الانسان ص ٥٤١

(٦) سورة الكافرون / الآية ٦

(٧) سورة يونس / الآية ٤١

(٨) الشيخ محمد الغزالي: حقوق الانسان في الإسلام ص ٨٠ - ٨٣ بتصرف بسيط

(٩) سورة المائدة / الآية ٣٢

(١٠) سورة النور الآية ٢٧ - ٢٨

ولقد أولى الاسلام عناية قصوى بجرمة المسكن حتى أعطى لصاحبه حق الدفاع عن حرمانه دفاعاً شرعياً قد يصل إلى فقاً عين المتلصص، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو أن امرءاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقات عينه لم يكن عليك جناح)<sup>١</sup>.

ولا فرق في وجوب احترام المسكن بين الفرد العادي، والحاكم، إلا لحالات الضرورة القصوى، فقد ورد في المصنف: (أن الخليفة عمر رضي الله عنه حدث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته هو وأصحاب له، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل فقط، فقال أبو محجن: يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، فقد نهى الله عن التجسس، فقال عمر: ما يقول هذا؟ فقال له زيد بن ثابت: صدق يا أمير المؤمنين، هذا من التجسس، قال: فخرج عمر وتركه)<sup>٢</sup>، وروى عبدالرزاق أيضاً: (أن عمر دخل على فتية يتعاقرون شراباً، ويوقدون في أخصاص - بيوت من شجر أو قصب - فقال: نهيتكم عن المعاقرة فعاقرتم، ونهيتكم عن ايقاد في الأخصاص فأوقدتم؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين قد نهى الله عن التجسس فتنجست، وعن الدخول بغير إذن فدخلت؟ فقال: هاتين بهاتين، فانصرف ولم يعرض لهم)<sup>٣</sup>.

وهذا دليل على أن أي تحقيق أو دليل على حادثة بني على أساس غير مشروع فهو غير مشروع لا يحتج به، ولا يبنى عليه، وبالتالي ترك عمر رضي الله عنه الحد على هؤلاء، لأنه لم يجد إلا الضبط الذي تم بطريق غير مشروع وبالتالي فلا يحتج به، وبهذا المنهج سبق الفقه الاسلامي القانون الوضعي، وبخاصة القانون الأمريكي الذي امتاز باستبعاد الدليل المتحصل عليه بطريق غير مشروع<sup>٤</sup>.

ويلحق بجرمة المسكن حماية حرمة الاتصالات والمراسلات الخاصة بالانسان حيث لا يجوز الاعتداء عليها، أو الاطلاع عليها إلا لحالات الضرورة القصوى<sup>٥</sup>.

وقد نصت المادة (٣٧) من الدستور القطري على ذلك فقالت: (لخصوصية الإنسان حرمتها، فلا يجوز تعرض أي شخص، لأي تدخل في خصوصياته أو شؤون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو أية تدخلات تمس شرفه أو سمعته، إلا وفقاً لأحكام القانون وبالكيفية المنصوص عليها فيه).

## رابعاً - حماية حقوقه السياسية

حيث هي الاسلام هذه الحرية أيضاً ما دامت في إطار غير مسلح مثل إبداء الرأي، ومعارضة الحاكم بالحكمة والموعظة الحسنة، أو حسب المصطلح الاسلامي " النصيحة " حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: ( الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: ( لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)<sup>٦</sup>.

(١) رواه البخاري في صحيحه - مع فتح الباري - كتاب الديات (١٢/٢٥٣)

(٢) رواه عبدالرزاق في المصنف (١٠/٢٣١ - ٢٣٢)

(٣) المرجع السابق نفسه

(٤) عبداللطيف مميم: جرائم الاعتداء على الحياة الخاصة، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير بشريعة الأزهر عام ١٤٠١هـ ص ٢٣٥

(٥) المرجع السابق نفسه

(٦) رواه مسلم في صحيحه الحديث رقم ٥٥ ورواه أبو داود الحديث ٤٩٤٤ والنسائي (٧/١٥٦)

ولا مانع شرعاً في نظرنا تشكيل أحزاب سياسية، لكل حزب برنامجه الخاص في إطار الشرعية والدستور الاسلامي، بل إن في ذلك ثراء وإثراء وتحويلاً للنصيحة الفردية إلى المؤسسة المنظمة القادرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صورة أفضل وأقوى من الفرد، والمساهمة الفعالة في منع الفساد الاداري، وفي تحقيق التنمية الشاملة. ومن الحقوق السياسية: حق تولي الوظائف العامة، وحق المشاركة في تدبير شؤون الدولة على أساس الاختصاص دون التفرقة بين شخص أو آخر.

### خامساً - حماية الحقوق الاقتصادية

من حرية التملك، وحرية العمل، وهذان الحقان مفصلان في شريعتنا الاسلامية الغراء لا يسع المجال هنا للخوض في تفاصيلهما<sup>١</sup>.

### سادساً - حماية الحقوق الثقافية والعلمية

لم نجد إلى اليوم كتاباً قديماً، أو دستوراً، أو نظاماً يبدأ بالأمر الجازم بالقراءة والعلم إلا ذلك الدستور الإلهي الخالد: القرآن العظيم الذي تنزل منه أول آية تقول: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)<sup>٢</sup>.

ثم تنزل مئات الآيات في بيان فضل العلم وأهميته ن وأنه مفتاح الحضارة، والاستخلاف والتعمير، وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أهمية هذا الحق فجعله مشاعاً وحرماً كتماناً ومنعه، بل جعل التعليم فداءً لفك الأسرى في غزوة بدر الكبرى، فقد روى سعد عن عامر الشعبي قال: (أسر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر سبعين أسيراً..... وكان أهل أمكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه)<sup>٣</sup> وهذا دليل على أهمية العلم، وأنه يمكن أخذه من غير المسلمين.

إذا نظرنا إلى الحضارة الاسلامية لوجدناها أنها قامت على العلم، وأن أصحابها صرفوا الغالي والنفيس في سبيل تحقيقها، وأن العلم في الاسلام للجميع.

هذا وقد نص الدستور القطري على هذا الحق في مادته (٤٩) فقال: (التعليم حق لكل مواطن وتسعى الدولة لتحقيق إلزامية ومجانبة التعليم العام، وفقاً للنظم والقوانين المعمول بها في الدولة).

(١) يراجع: أ.د. علي محي الدين القره داغي: المدخل إلى الاقتصاد الاسلامي ط. دار البشائر الاسلامية للطباعة والنشر والتوزيع

(٢) سورة العلق / الآية ١ - ٥

(٣) طبقات ابن سعد (٢٢/١) ط. بيروت

## الأمر الثاني : العقد الذي يتم بين الحاكم والمحكوم سواء كان عقداً شفهيّاً ، أم مكتوباً

حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم ( وهو رسول ) حينما أخذ البيعة من الأنصار في بيعة العقبة الثانية كان فيها شرط ينص على أن: ( تنصروني، فتمنعوني - إذا قدمت إليكم - مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم .... )<sup>١</sup>، وكان الأنصار اشترطوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم: ( إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فإننا في ذمتنا، نمنعك ما نمنع منه أبناءنا ونساءنا )<sup>٢</sup>.

واحتراماً لهذا الشرط الذي يدل على أن الأنصار يحمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بلدكم، ولم يبائعوه على القتال معه خارجه، لذلك اقتضت السرايا التي سبقت بدر على المهاجرين، فطلب الرسول صلى الله عليه وسلم موافقتهم الصريحة على ذلك<sup>٣</sup>، حيث شاور الصحابة عامة، ثم خص الأنصار بالمشورة للحصول على الموافقة على هذا الموقف الجديد الذي لم يكن موجوداً ضمن شروط العقد السابق، فقد روى ابن اسحاق خير المشورة بسند صحيح<sup>٤</sup> وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم استشار الناس الموجودين معه، فقام ثلاثة من المهاجرين هم أبو بكر وعمر، والمقداد بن عمرو فأحسنوا في الرد والقبول ، ثم قال صلى الله عليه وسلم: ( أشيروا عليّ أيها الناس ؟ فقال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال: ( أجل ) ثم قال قولته المشهورة)<sup>٥</sup>.

وبهذا ظهر أن جملة من العلاقات والشؤون ينظمها عقد البيعة، وان جميع الشروط المتضمنة له يجب الالتزام بها ما دامت لا تتعارض مع النظام العام، والأدلة الشرعية الثابتة الصريحة.

فهذا العقد - كأى عقد - له ستة أركان مفصلة، أو ثلاثة مجملّة، وهي:

- ١- العاقدان، وهما: الأمة أو ممثلوها الشرعيون، والشخص المختار.
- ٢- المعقود عليه، وهو الحقوق الخاصة بالأمة، والحقوق الخاصة بالقائد.
- ٣- الصيغة الدالة المعبرة عن رضا الطرفين - أي الإيجاب والقبول - سواء كانت باللفظ فقط، أو بالكتابة، أو نحوهما.

وأما طبيعة العقد فهي عقد خاص في نظري أشبه ما يكون بعقد الوكالة بالأجر، ولذلك سمى بعض التابعين الخليفة معاوية بالأجير، فقالوا: (السلام عليكم أيها الأجير) ومن هنا فإن عقد الوكالة بالأجر يكاد ينطبق تماماً على ما يسمى بالبيعة. ومن الجدير التنبيه عليه هنا أن المراد بالبيعة هنا: الصفقة، وقد استعملت هذه الكلمة في هذه الدائرة لشبه العقد السياسي بصفقة البيع من حيث أن المبايع يعاهد أميره بوضع اليد في يده كما يفعله المتبايعان، يقول ابن خلدون: (اعلم أن

(١) رواه أحمد في مسنده بإسناد جيد (٣/ ٣٢٣ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠) والحاكم في المستدرک (٢/ ٦٢٤ - ٦٢٥) وقال : صحيح ، ووافقه الذهبي ، وابن كثير في سيرته (٢/ ١٩٦) وصححه على شرط مسلم ،

ويراجع : د. أكرم العمري : السيرة النبوية الصحيحة ، ط. مركز بحوث السنة والسيرة بقطر ١٩٩٨م

(٢) رواه اسحاق بسند صحيح ، انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣) وقال : (وله شواهد من وجوه كثيرة ، فمن ذلك رواية البخاري والنسائي ، وأحمد .....) ويراجع : د. أكرم العمري :

المرجع السابق ص ٣٥٨ - ٣٥٩

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣) بسند صحيح

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣) بسند صحيح

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٣) بسند صحيح

البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على كذا... ، وكانوا إذا بايعوا الأمير، وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع<sup>١</sup>.

ومن المتفق عليه أن هذا العقد يتم بالأركان الستة بل إن أهم أركانها هو الإيجاب والقبول، أنه لا يشترط فيه وضع اليد، وإنما كان هذا عادة غير ملزمة، بل هي للتأكيد فقط.

وقد سمي القرآن الكريم ذلك بالمبايعة فقال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)<sup>٢</sup> وهذه الكلمة تدل على المشاركة لأنها من صيغة المفاعلة مما يظهر منها بوضوح الدلالة على عقد يجمع الطرفين على حقوق والتزامات.

وفي ضوء ذلك فإن عقد المبايعه عقد له طبيعته الخاصة، ويشبهه من عقود من عقود الأفراد: عقد الوكالة بأجر، وبالتالي فهو من زمرة العقود والدائرة بين المعاوضات والتبرعات، وأن محل العقد هو مجموعة من الحقوق الخاصة بكل واحد من العاقدين، وهما الأمة أو مثلوها، والقائد أو الحزب الذي يمثله، وأن هذا العقد يخضع في شروطه، ومدته وآثارها وحقوقه إلى النظام العام الذي سنتحدث عنه، وإلى القيم العامة (الدينية، والإنسانية الثابتة) وإلى بنود العقد أو الدستور الذي ينظم هذه العلاقة.

وقد حدد الخليفة الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) عندما بويع بالخلافة جملة من هذه الحقوق - كما سبق -.

### الأمر الثالث : القيم السامية ( الدينية والإنسانية )

وبالإضافة إلى أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، أو بين الراعي والرعية تخضع للنظام العام، والعقد حسبما ذكرنا فإنها تخضع في الإسلام أيضاً للقيم السامية التي تكون القيم الإنسانية الفطرية التي فطر الله الناس عليها جزءاً أساسياً منها، والتي أكدها الإسلام، وفتح الباب لدخول كل قديم صالح وجديد نافع فيها.

فالراعي - سواء كان رئيساً أم غيره - فهو مسلم وبالتالي لا بد أن يخضع لكل أحكام الشرع وقيمه السامية في العلاقة بين الإنسان وربه، وبينه وبين أخيه الإنسان، وبينه وبين أمه الأرض<sup>٣</sup> والبيئة، وبالتالي فتجب عليه حقوق الاخوة الإيمانية، وكذلك تجب على الشعب أو الأمة مثل هذه الحقوق.

ومن جانب آخر فإن الإسلام يريد أن تكون هذه العلاقة قائمة على أساس المحبة المتبادلة، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات، وهذا ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح رواه مسلم بسنده عن عوف بن مالك، قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذي تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم)<sup>٤</sup>.

(١) المقدمة لابن خلدون ط. دار الشعب / القاهرة، ص ١٨٦ - ١٨٧

(٢) سورة الفتح / الآية ١٨

(٣) سميت الأرض أمّاً ، لأنها خلقتنا منها ، فهي أمنا بعد أمنا حواء عليها السلام

(٤) رواه مسلم ، الحديث رقم ١٨٤٦

وهذه الحجة تنبثق من الإيمان والاحوة الإيمانية، وتترتب عليها حقوق وواجبات كما ستتضح فيما بعد وأما أساس العلاقة من العملية فهو العقد الذي بموجبه يعطي الشعب أو ممثلوه البيعة للحاكم، حيث قد يكون هذا العقد مشافهة - كما كان في السابق - أو مكتوباً من خلال الدستور الذي اختاره الشعب أو ممثلوه الحقيقيون، والذي يُحدد الحقوق والواجبات، أو من خلال عقد مكتوب، ومن المؤكد شرعاً وعقلاً وتجربة أن الذي يحقق الحجة بين الطرفين هو العدل والاحسان، والشورى، واحترام الآخر، وحماية حقوقه وكرامته، فقال تعالى: ( فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كُنتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين )، فهذه الآية الكريمة بينت أسباب تحقيق الحجة بين الراعي والرعية، وهي الرفق واللين والرحمة، والابتعاد عن فظاظة القلب، وبداءة اللسان، ثم إن الدعاء من الراعي بالعفو والمغفرة للرعية، وهذا لا يتحقق إلا من خلال الحجة المفضية للدعاء في ظهر الغيب، ثم احترام الرعية من خلال الرجوع إليهم بالتشاور في أي شأن مهم يهمهم.

ويقول ابن خلدون: ( وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت التعة، والنصرة التناصر، وهذا مشاهد بين الناس ).

هذا ما أردنا بيانه بإيجاز شديد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،  
وصلى الله على عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين